رسالة العالمة

شاءت حكمة الله وقدرته أن تؤسس الحياة الإنسانية بقطبين أساسيين عليهما مدار الحياة وكمالها، هما منبع الخير للإنسانية أو سبيل تدهورها وفسادها، مكلفان بتهييء الإنسان لتحمل مسؤولية إعمار الأرض وإصلاحها في الحقب الممتدة من حياة البشر مصداقا لقوله تعالى: (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، إنه كان ظلوما جهولا).

وتلك الحكمة البالغة من تكليف المرأة والرجل بإعمار الأرض وتنظيم الحياة بها، وتلك الغاية الربانية المتوخاة من وجود الإنسان في هذا الكون وهي العبادة لله الواحد الأحد، قال تعالى:»وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون".

ولا تتحقق العبادة لله إلا بتوحيد خالق الكون ومحبته وطاعته ليستقر العدل والإيحاء في الأرض وتعم المحبة والسلام بين البشر وتتحقق المصلحة من تكريم الله للإنسان وتفضيله على سائر المخلوقات.

والعلماء أهل لتحقيق هذه المصلحة الربانية الهادية لخير البشر، ومكلفون بتربية المجتمع دينيا وفكريا وخلقيا ووضعه على النهج السليم والصراط المستقيم.

إنهم مكلفون برسالة عظمى في مجتمعاتهم وفي المجتمعات الإسلامية عامة، وهي إصلاح العقل وتقويم الخلق، وتعليم الإنسان أسس دينه كي يرتبط بحبل الله المتين، قال تعالى:»إنما يخشى الله من عباده العلماء".

وقد كلف الله جل وعلا المؤمنين والمؤمنات بمسؤولية توجيه المجتمع، والآية الكريمة واضحة في إلقاء مسؤولية التربية والإصلاح على

فاطمة القباج

عضو المجلس

العلمي الأعلى

الرجال والنساء على السواء في قوله عز وجل:»والمومنون والمومنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويوتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله".

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو إصلاح المجتمع، وإشاعة التربية المستقيمة بين أفراده في أجلى صورها ومعانيها. ومن هنا تبرز مسؤولية العالمة بكل وضوح، فالمرأة العالمة لها رسالة تكمن في التسلح بالعلم والمعرفة وتبليغهما للتفاعل مع المجتمع، والصمود في وجه التحديات المعاصرة.

والحقيقة أن الإصلاح والوقوف في وجه التحديات يتطلب إظهار الوجه المشرق لتعاليم الإسلام وقيمه، وإبراز حقائقه الرائعة مدعمة بالحجج العقلية والشرعية والمنطق السليم لتقريبها من عقول الناس وأفئدتهم، وهذا يتطلب العمل العلمي والتوعوي في عدة واجهات.

وفعلا فقد أعطت المرأة بمشاركتها في المجالس العلمية نفسا جديدا للعمل الإصلاحي، وعملت من مركزها كعضو في هذه المجالس على تطوير العمل وتجديده والنهوض به، وأصبح دورها بارزا وملموسا في الميادين العلمية والاجتماعية والتنموية لأنها تتوفر على ثقافة ومقدرة علمية وكفاءة في ميدان العمل، وقرب من المواطنين. ولهذه المؤهلات أصبحت تتحمل مسؤولية التربية والتوجيه في أسرتها الصغيرة وفي مجتمعها والمجتمع الإسلامي ككل.

ومما لا جدال فيه أن مجتمعنا متعطش لمن ينور فكره ويشبع رغبته في الاطلاع على المبادئ الإسلامية ومن يقدم له الدين بأسلوب سهل ممتنع ومتفتح على العصر. ولا يمكن أن يتحقق هدف الإصلاح الديني ويؤتي أكله، إلا بالجهود المشتركة بين العالم والعالمة.

أسلوب الإصلاح ومنهجيته

الإصلاح - كما أتصوره - يجب أن يتبلور في تقديم الإسلام من منابعه الصافية، ومسيرة الإصلاح يتعين أن يواكبها التشبث بالقيم والثوابت، كما يتعين أن يواكبها الانفتاح على العصر والأخذ بأساليبه الحديثة.

ولن نصل إلى العقول والأفئدة إلا إذا خاطبنا أبناءنا وشبابنا بلغة في متناول عقولهم، وقدمنا لهم القيم الإسلامية والفكر الإسلامي في حلة جذابة تراعي منطق العصر وتؤدي إلى ترشيد المجتمع في إطار منهجية سليمة ومتطورة.

ولبلوغ الأهداف المتوخاة لا بد من اتخاذ وسائل ناجحة وفعالة لتربية دينية وخلقية موجهة للنشء والشباب لإرواء فكره المتعطش إلى معرفة الإسلام معرفة واضحة ومتكاملة. وتوجيه العناية للنشء والشباب هو من صميم عمل المرأة في المجالس العلمية ومن الأولويات التي تستأثر باهتماماتها. وهذا أمر طبيعي، فالشباب بناة المستقبل وهم في حاجة ماسة إلى الأم الواعية وإلى المرأة العالمة لأنها مغذية القلب والوجدان، ومكونة العقل، وبانية الشخصية، والهادية إلى تقوية الإيمان والعقيدة.

فالأسرة، إذن، تتطلب منا تفكيرا وعملا دؤوبا بتوعية الأبوين وتوجيههما للقيام بدورهما الأسمى وهو تربية الأبناء تربية إسلامية متكاملة تجمع بين تزويدهم بقيمنا المثلى، وبين التطبيق العملي للجمع بين الفكرة الدينية والواقع والمثال الحي ليقدما للأبناء ديننا القويم المستقيم في حلة مكتملة.

إن على الملقن أن يعطي المثل، وهذا من الأسس التربوية النابعة من ديننا وتعاليمنا، وقد انطلقت المدرسة النبوية بالتربية وإعطاء المثل وأنارت لنا طريق التلقين والتربية وزودتنا بأساليبها الرفيعة. ثم إن على المربي مسؤولية المعرفة والاطلاع على أسس الدين وقيمه وأركانه الأساسية ليكون مدركا تمام الإدراك لما يلقنه، وهذا يصدق على الأب والأم في البيت والمربي والمؤطر في المدرسة.

اهتمام المؤسسة العلمية بالمستقبل الفكري والروحي للشباب

مما لا جدال فيه أن مجتمعنا متعطش لمن ينور فكره ويشبع رغبته في الاطلاع على المبادئ الإسلامية ومن يقدم له الدين بأسلوب سهل ممتع ومتفتح على العصر.

وهذا ما تقوم به مؤسسة العلماء، فهي تعمل من أجل مستقبل شبابنا وضمان الاستقرار الفكري والروحي لأجيالنا الصاعدة، وتسعى لإقناع ناشئتنا بمسؤوليتها التوعوية والتنويرية، ولخلق تقارب بينها وبين العلماء، ولإنجاز الإصلاح المنشود.

لذلك فهي تعمل على تقريب الإسلام منها بالانفتاح على روح العصر والمرونة في الاجتهاد، ومراعاة الأحكام الشرعية للمصلحة والظروف الحياتية التي يعيشها أبناؤنا ومجتمعنا.

هكذا أنظر إلى المسؤولية الدينية، وهي مسؤولية جسيمة وواجب يفرضه علينا الدين والمواطنة، ويفرضه علينا موقعنا الإسلامي وثقافتنا الأصيلة.

العالمة والعمل الاجتماعي

المرأة المسلمة بإحساسها المرهف وطبعها التواق إلى الخير تتسابق نحو الإحسان، وتتضامن مع الفئات المحتاجة مستجيبة لقول الله عز وجل:»وتعاونوا على البر والتقوى»، وتسرع الخطى لإطعام الطعام ومساعدة اليتيم والمسكين امتثالا للآية الكريمة:»ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا"، وأيضا تطبيقا للحديث النبوي الشريف:»مثل المومنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

والعمل الاجتماعي متأصل في شريعتنا ومتجذر في تعاليمنا وأساليبنا الاجتماعية ونابع من القرآن والسنة النبوية.

وقد انخرط العلماء في العمل الاجتماعي بكل تلقائية ومسؤولية، ووضعت المؤسسة العلمية لتفعيل هذا العمل خطوطا عريضة وشاملة لكل شرائح المجتمع ومطبقة في كل جهات الوطن بإشراف المجالس العلمية.

والعالم له دور كبير في المجتمع، فهو الراعي الأمين لحمى الدين، ومقدسات الأمة عليه يعتمد المجتمع لتحقيق المصالح، وجلب المنافع، ودرء المفاسد، واجتناب الضلال والانحراف والآفات الاجتماعية.

واعتمادا على الهدي القرآني والنبوي، فقد اندمجت المرأة العالمة في العمل الاجتماعي انطلاقا مما خططته مؤسسة العلماء. فقد عملت على ترسيخ العمل الاجتماعي وتجديد أساليبه ليلائم تطورات العصر ويفي بحاجات الناس وفق أحكام الشريعة ومقاصدها.

ونظرا لحجم البرامج المخصصة للنساء، واتساع أعمالها، فقد أحدثت المجالس خلايا المرأة والأسرة مما ساعد على تكثيف الجهود والعطاء المثمر، فقد حفظ القرآن عدد كبير من النساء في مختلف أنحاء المغرب، ووقع تقدم محسوس في رفع الأمية في الحواضر والبوادي يرافقهما تعليم لمبادئ الدين وشرح لمعاني الآيات القرآنية وتحفيظ للأحاديث النبوية.

ووصلت قوافل التنمية والتنوير إلى عدة مجمعات قروية مما خلق وعيا لدى المرأة في البادية وشعورا بالكرامة.

أما فضاءات المساجد فقد أصبحت ميدانا ثقافيا وتعليميا تتلقى فيه النساء الموعظة الحسنة والتفقه في دينهن ودنياهن والتفتح على مجتمعهن وبيئتهن.

وبالإضافة إلى ذلك فالمرأة تشرف على بيوت الاستماع بالمجالس العلمية للإجابة على الأسئلة الدينية المتعلقة بالمرأة والأسرة وإيجاد الحلول الشرعية لها، ومحاولة الإصلاح بين الأزواج للحد من ظاهرة الطلاق.

وللمرأة إحساس قوي بالمسؤولية الاجتماعية، ومن أجل ذلك تعمل على ربط الاتصال والتواصل مع الفئات الشابة، فتنظم اللقاءات مع التلاميذ والطلبة لتحدثهم عن أضرار التدخين والكحول والمخدرات، وتحذرهم من آثارها الخطيرة على صحة الفرد وأمن المجتمع.

وتنظم رحلات إلى بعض المناطق الجبلية أو المناطق المتوغلة في جهات بعيدة عن المدن للوقوف على أوضاعها الأخلاقية ومعرفة المشاكل التي تعيشها الأسر في هذه المناطق وغيرها، والتردي الأخلاقي الذي وصلت إليه من جراء الفقر والجهل.

هذه الصورة أخذت لنا في القسم التخريجي من جامعة القرويين، وتضم الفوج الأول من الفتيات المتخرجات من القرويين، في وسط الصورة شيخنا الكبير أستاذنا سيدي عبد الكريم الداودي تغمده الله برحمته، وخلفه الأستاذ الجليل العالم سيدي أحمد الحبابي رحمة الله عليه، وكان مديرا إذ ذاك لمعهد الفتيات بالقرويين. وتضم الصورة من اليمين إلى اليسار الأستاذات العالمات عائشة السقاطية وفطومة قباجة وزهور الزرقاء رحمها الله وفي الصف الخلفي حبيبة البورقادية والسعدية الحميانية.

ولم تتوان العالمة في مثل هذه الأوضاع عن توعية الأسر بمخاطر العلاقات الجنسية غير الشرعية، وما يترتب عليها من أمراض وأضرار فتاكة، وتدعوها إلى العفة والإحصان لأبنائها وحفظهم من الانزلاق نحو الرذيلة. وهذه الصفة من ضرورات الدين وبها ينشأ المجتمع نظيفا ومتماسكا.

والواقع أن هذه الفئات محتاجة إلى إنقاذها من الفقر والجهل لمحاربة الفساد الأخلاقي الذي تعيش فيه الأسرة ويتخبط فيه المجتمع. ولهذا السبب فإن العالمة تستدعي أطباء مختصين للتحسيس بخطورة الأمراض المتنقلة جنسيا وضرورة الوقاية منها.

وتدعو بكل حرص وتأكيد إلى الالتزام بما يفرضه علينا العمل الاجتماعي من التصدي لمقاومة الفقر والجهل والمرض بهذه الجهات.

والمرأة العالمة تتفانى في إصلاح مجتمعها فتقتحم السجون لتعليم السجينات وإرشادهن، كما تذهب إلى الإصلاحيات لإشعار النزلاء بالخطأ والانحراف وإقناعهم بالتزام الحدود الدينية والأخلاقية والانضباط في السلوك للاندماج من جديد في مجتمعهم.

العالمة والتنمية البشرية

انخرطت العالمة في مشروع التنمية البشرية، في بعدها الثقافي، وهو المشروع الرائد الذي تبناه صاحب الجلالة الملك محمد السادس أيده الله لإحداث تطور وازدهار في كل القطاعات للرفع من شأن الإنسان المغربي وتهيئ مستقبل زاهر لكل المغاربة. وجلالته يعمل على تحقيق المشروع تدريجيا على الصعيد الوطني.

وقد استجابت عضوات المجالس العلمية للمشروع بنشر العلم، وتزويد فئات من المجتمع بقيم الدين وأخلاقه، والعمل على تنوير عقول الأطفال والكبار على السواء، رجالا ونساء، بالقرآن الكريم، حفظا وفهما وممارسة.

وللمشاركة في التنمية البشرية رأت العالمة أنه لا بد من اتخاذ وسائل أساسية لإنجاح مشروع التنمية...

من تلك الوسائل نشر الثقافة الإسلامية في مجتمعنا، وتعميم الوعي بضرورة انتمائنا لهذه الثقافة، كي نربط ماضينا المشرق بحاضرنا المتعطش للمعرفة الإسلامية، وإعداد مستقبل واعد.

ومن صميم التنمية البشرية الرامية إلى الحفاظ على شخصيتنا وهويتنا تقوية اللغة العربية وممارستها في الحياة العامة لحفظ كياننا وطابعنا المميز لأصالتنا الدينية واللغوية كي لا نصبح طعمة لكيانات دخيلة.

ونشر اللغة العربية يرتبط ارتباطا عضويا بالثقافة الإسلامية، فهي لغة القرآن والحافظ الأمين لشخصية المسلم وفكره وتراثه، وهي أيضا من الوسائل الأساسية والضرورية لإنجاح التنمية البشرية ببلادنا.

وقد أقرت منظمات دولية، وفي طليعتها اليونسكو، ألا تنمية بمفهومها الشمولي إلا بلغة البلاد، ويتعزز هذا القول بكون اللغة العربية هي لغة القرآن ولغة العقيدة.

ومن موقع المرأة في المجالس العلمية أنها عملت على نشر ثقافتنا الإسلامية بالمشاركة في الندوات العلمية والمؤتمرات الإسلامية وبالكتابة في الصحف والمجلات العلمية والمشاركة في البرامج الإعلامية.

ومن أهم الأعمال المشرفة للمرأة العالمة والرائدة للمرأة المسلمة مساهمتها في الدروس الحسنية، فقد تشرفت بإلقاء الدروس أمام صاحب الجلالة الملك محمد السادس أيده الله، وكانت في مستوى هذا التشريف.

وأخذت العالمة على عاتقها أنها ستعمل على تقوية العمل الثقافي بعقد لقاءات حول ما كتب عن الإسلام لإبراز حقائق كامنة بين دفات الكتب أو الكشف عن بعض كتب المستشرقين التي تنتقد الإسلام أو تقلب حقائقه وتصوغها عيوبا تلحقها بالدين أو بصاحب الرسالة المحمدية، وأيضا للتصدي للكتب التي تحرف الإسلام أو تهاجمه.

وقد أتيحت للعالمة فرص لإظهار حقائق الإسلام وإعطاء صورة واضحة عنه خالية من الزيف والتحريف.

والمرأة العالمة تشعر بجسامة المسؤولية، فعليها أن تسهم في صناعة وتوجيه المجتمع الإسلامي بسلوكها النير وبالقدوة الحسنة، عليها أن تعطي صورة مشرفة عن دينها، وأن تكون نموذجا ومثالا يخترق حدود بلدها لتصبح قدوة لغيرها بدل أن يبقى النموذج والمثال وافدا علينا من العالم الآخر وسالبا لكل مقوماتنا.

العالمات يتصدين للعمل الاجتماعي

إن رسالة المرأة العالمة تكمن في التسلح بالعلم والمعرفة الواسعة بالتفاعل مع مجتمعها والصمود في وجه التحديات المعاصرة، ولشرح الفلسفة الإسلامية الرامية إلى خلق مجتمعات قوية ومتماسكة لا تفرق بينها الأهواء والخلافات، بل تجمع بينها العقيدة السمحة والتضامن الإسلامي ووحدة الهدف والمصير.